

الأهرام عدد 18/10/2009

طوال ما يزيد علي أربعة عقود, ومهما تباينت رؤانا الفكرية والسياسية, لم ينقطع اتصالننا, وتعمقت صداقتنا, حتي لقائنا الأخير معه بصحبة صديق عمرنا المشترك الدكتور عبد المنعم سعيد في المستشفى. وبينما كان حديثنا إليه خلال اللقاء الأخير- شأن محادثتنا الهاتفية معه وهو في باريس- عن أملنا في شفائه, جاء ردنا علي كلماته عن 'رحلة الوداع' الأخيرة للقاهرة هو اتصالاتنا للتسجيل بإجراءات سفره ومرافقيه إلي أمريكا, أملا في فرصة لاحت للعلاج وإن بدت طفيفة; بعد عودته من فرنسا باستنفاد فرص أفضل علاج له في الخارج.

وفي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية كان 'محمد الإنسان' لقب الصديق محمد السيد سعيد بيننا.. نحن أصحابه من خريجي عام 1972, الدفعة العاشرة أو حاملي اللواء العاشر كما أطلقت عليها إحدى مجلات الحائط, أهم المنابر الصحفية بالجامعات في مطلع سبعينيات القرن الماضي. ولا أتذكر من الذي ألصق صفة 'الإنسان' النبيلة باسمه, لكنه استحقها بغير جدال, لأنه إلي جانب كرمه المعهود وحسه الإنساني العميق كان بين قلة ممن قابلت في حياتي المديدة ينطبق عليه قول ماركس الشهير: 'كل ما هو إنساني.. ليس غريبا عني'. فقد كانت ماركسيته إنسانية النزعة, شأن الماركسية المبكرة قبل أن يلحق بها التشوه, حتي ذاع القول بأن ماركس لو رأي الماركسيين اللاحقين لصاح: 'لست ماركسيا!!'

وقد شاءت الأقدار أن التحقت مع صديقي 'محمد الإنسان' في ذات القسم بالكلية, وخدمنا معا جنديين بالقوات المسلحة في كتيبتين بذات اللواء في العين السخنة, وعملنا معا بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية في وحدة دراساته الاقتصادية, وتواصلنا خلال دراساتنا العليا في روسيا وأمريكا, وعدنا لنعمل معا تحت قيادة أستاذنا وصديقنا السيد يسين, ثم نائين لصديقنا عبد المنعم سعيد, حتي كان الهاتف وسيلة اتصالي به خلال أشهر علاجه الأخيرة في فرنسا, لأطمئن منه علي صحته, وأتابع وصول تحويلات الأهرام إليه لتغطية جميع تكاليف إقامته للعلاج.

وبعد التخرج إلي كتيبتين بذات اللواء من المشاة الميكانيكية في منطقة العين السخنة انتقلت وصديقي من مركز تدريب المعادي, واستمرت خدمتنا معا ثلاث سنوات قبل وبعد حرب أكتوبر المجيدة, كثيرا ما كان يزورني في موقعي علي طريق ذهابه وإيابه من الإجازات. ورغم نجاته من استشهاد محقق, حين تطوع مع مجموعة جند وضباط بوسائل في عملية شبه انتحارية, وقع 'محمد الإنسان' في أسر العدو الاسرائيلي الذي

أخفق في كسر إرادته. فقد خرج صديقي من الحرب والأسر مفعما بالوطنية المصرية التي لم تنتقص منها أمميته, واستمر محاربا صلبا للعنصرية الصهيونية برغم دفاعه الشجاع اللاحق عن السلام العادل. ولأنني كنت ناصريا طوال سني الجامعة, فقد جاء اشتراكي مع صديقي الماركسي في حركة التضامن مع الثورة الفلسطينية التي تصاعدت بعد عام1970, ثم في الحركة الطلابية الوطنية الديمقراطية حتي عام1972, من مواقع فكرية وسياسية مستقلة, وإن ساهم' محمد الإنسان' في اقتراي من اليسار الوطني.

وإلي مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام انتقلنا معا- من عملي بالتجارة الخارجية ومن عمله بوزارة الثقافة بعد انتهاء خدمتنا العسكرية- للعمل باحثين لبعض الوقت في الاقتصاد السياسي بترشيح أستاذنا الدكتور عمرو محيي الدين, حتي قرر أستاذنا السيد يسين تعييننا بالمركز. وفي وحدة الدراسات الاقتصادية وقبل سفرنا للدراسات العليا تعلمت من صديقي ومعه أهم ما تعلمت وهو الدأب في البحث. ورغم عشقي للمعرفة شأن صديقي, و برغم كثرة ما قرأت طيلة حياتي- وخاصة خلال أكثر من ثماني سنوات في الإعداد لبرنامجي' دائرة الحوار' والأهم في السنوات الخمس اللاحقة لعملي رئيسا للهيئة العامة للاستعلامات- استمر صديقي الأوسع ثقافة مني ومن جميع أقرانه بفضل نزعتة التي لاتباري للثقافة الموسوعية.

وقد كانت النزعة العلمية الصارمة والنزاهة الفكرية القويمة والعقلية النقدية الموضوعية وراء تفرد صديقي, الذي جعله - كما وصفه بحق حوار جاد معه - ' أكثر اليساريين ليبرالية, وأكثر الليبراليين يسارية'. وقد استمر الاحترام المتبادل بيننا, ولم تتزعزع ثقنتنا المتبادلة بأن كلا منا- مهما تكن اجتهاداته- لا تدفعه سوي منظومة قيم تستهدف التقدم الشامل لمصر, فكان ضيفا معي في عدد من حلقات دائرة الحوار, وقدم دون تردد ما طلبته منه من عون علمي خلال عملي بالاستعلامات, ثم عرض علي أن أعمل معه في أي موقع أريد بجريدة البديل التي أسسها قبل أن يستقيل من رئاسة تحريرها; فاعتذرت واحترم اعتذاري وبقي الاحترام متبادلا واستمرت الصداقة موصولة! وقد أشدد هنا علي أن يقيني كان ولا يزال أن البحث العلمي الاجتماعي في مصر قد خسر جهود عالم لحساب الحركة السياسية والحقوقية; لكنها اختيارات كل امريء في الحياة بتكلفتها وعاندها! وقد كان صديقي ابن جيل قرر أن يبقى' جسرا لا يتحطم', وأن يرفض أن يكون' وقتا ضائعا بين الوقتين'. وهكذا كان مع جيله جسرا للعبور من هزيمة يونيو إلي نصر أكتوبر, وكان بدفاعه عن' حقوق الإنسان' متعجلا لأوان انتقال مصر مع العالم بأسره إلي عصر تحترم فيه جميع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية للإنسان! وقد جاء كفاحه من أجل حقوق الإنسان كما رأيته تعزيزا لنزعتة الإنسانية وتجسيدها لأهم معاني صحبته, فقد علمتني الحياة أن الإنسان لا يقاس بأفكاره المعلنة وشعاراته الصاخبة وإنما بقيمته الإنسانية. وهنا بالذات يكمن الأساس الراسخ للصداقة التي جمعتنا حيث تتباين الأفكار, وقد تتباعد وتتصادم, وتبقي الصفات الأخلاقية أهم ما يجمع البشر! وليس هذا بجديد فقد كان إبداع المصري القديم للأخلاق قبل أكثر من خمسة آلاف عام أساس كل اقتراب بين' الإنسان وأخيه

الإنسان' بدءا من الصداقة, التي كتب عنها صديقنا عبد المنعم سعيد رائعته' صديقي محمد السيد سعيد',
وحتى بناء أعرق أمم الأرض قاطبة علي أرض المحروسة!

وفي أحاديثنا الأخيرة عبرت والصديق عبد المنعم سعيد عن افتقادنا الحقيقي لجهده الذي لا بديل له في تطوير الأهرام, حيث تدفقت أفكاره المتألقة دوما عن تنفيذ مشروعات لاستعادة وارتقاء الدور الثقافي التنويري للأهرام, وهو ما عاهدناه علي إنجازهِ, وبدأت أولي خطاه. وفي وداع صديقي' محمد الإنسان' تدفق دمعي العزيز.. عزيزا يبكي عزيزا.. فور سمعت خبر وفاته علي الهاتف, وبجوار مسجد العباسي في انتظار جثمانه ببورسعيد مسقط رأسه للصلاة عليه, ومع خطي جنازته الشعبية والرسمية البسيطة الوقورة, وإبان دفنه مع نسيج شقيقه السيد سعيد المخرج السينمائي المبدع ينتحبه أخا وإبنا, حتي كان أن تلقيت وصديقنا عبد المنعم سعيد العزاء فيه مع ابنه مروان وزوجته نور الهدي وأفراد أسرته وتلاميذه وأصدقائه ومحبيه, وهو العزاء الذي جمع شتي ألوان الطيف الفكري ووجد عدة أجيال وشهد رموز شتي الأحزاب وجمع كل من تعلم منه وعلمه.

وكان وداع القاهرة الأخير للصديق' محمد الإنسان' بمسجد عمر مكرم- الزعيم العظيم لثورات المصريين ضد ظلم المماليك وضد حملة الفرنسيين, والذي قاد تنصيب الشعب لمحمد علي واليا علي مصر ليعيد بناءها في عصر نهضتها الحديثة- رمزا يليق بوداع: صاحب مشروع متفرد لنهضة مصر ومؤمن بتقدمها الشامل المأمول والمحتوم.